الجوانب العسكرية والعلاقات السياسية
في تاريخ العرب القديم للالف الاولى ق٠م٠

رضا جواد الهاشمي
استاذ بقسم الآثار
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تقديم :

للعرب تاريخ قديم حافل بالنشاطات المختلفة ، السياسية والاقتصادية والفكرية والعمرانية والفنية والعسكرية ٠ وتتعزز معلومات الآثاريين يوما بعد آخر في اكتشاف المزيد من الآثار المادية والتسجيلات القديمة التي تؤكد النشاطات الحضارية المتعددة في تاريخ العرب القديم ٠

أما الحرب وشؤونها وجوانب الحياة العسكرية ، فأنها لم تكن سبباً في ذاتها في تاريخ العرب وانما كانت نتيجة أسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، تهيأت دوافع بعضها ذاتيا ، ولكن غالب دوافعها كانت خارجية ٠

فعندما تصل المطامع الاجنبية في بلاد العرب حد الغزو العسكري المسلح لاقسام منها مثلما كان حال بلاد الانباط التي تعرضت مرارا الى غزو اليونان والرومان ، فذلك يستدعي بالضرورة تهيأة الامكانيات اللازمة للدفاع ورد المعتدين ٠

وقد تدفع الاوضاع الاقتصادية المتردية ، أو الخلافات الناشبة عن شؤون اقتصادية تتعلق بالارض أو الري أو الممتلكات وغير ذلك ، الى اشعال فتيل الحرب بين العرب انفسهم ، لذلك يكون للقبيلة أو التجمع

القبلي أو الدولة المعينة ، التي تحسن سلاحها وتوجه خططها العسكرية ، الظفر المؤزر .

لذلك يقتضينا الامر عند الحديث عن الجوانب العسكرية ، أن نحيط بالجوانب الاخرى ، السياسية والاقتصادية ، سواء كانت في نطاق حياة العرب انفسهم ، أو في مجال المنطقة التي يشغلها العرب وغيرهم من الشعوب .

عرف العرب الحرب لا من خلال أسنة الحراب فحسب ، وانما حكموا عقلهم في شؤون الحرب بعقد التحالفات وابرام الاتفاقيات لتمتين مركزهم وتأمين المقومات اللازمة للحرب .

واستفاد العرب من خصائص أرضهم ومن امكاناتهم البسيطة لايجاد اسس الدفاع المكين عن بلادهم ، فمنحتهم البيئة الصحراوية عمقاً ستراتيجيا تعذر على الأعداء ولوجها كما طوروا استخدامهم للجمل وجعلوه لا يقل عن الخيل في صولات الحرب وجولاتها .

ومن الجدير بالتنويه ، اننا لم نعرف العرب في تاريخهم القديم قوما معتدين ، وانما عرفناهم أصحاب ماشية وزراعا وتجارا نشطين .

ولكن مقتضيات أعمالهم التجارية ، وضرورة الانتقال بالمواد التجارية الى أسواق الشام ومصر والعراق ، وأخذ الاحتياطات لحمايتها والسهر على أمنها ، وفي نفس الوقت اقامة أحسن العلاقات مع مراكز القوى المجاورة ، حيث نعرف عن تجار معينين سكنوا مصر وجزيرتي رودس وديلوس .

أن أسباب الثروة وشهرة منتجات بلاد العرب وأرباح تجارتهم النشطة ، وجهت اليهم أنظار الطامعين ، وبدأ التحرش ببلاد العرب ، وبخاصة في أطرافها الشمالية المتاخمة لمراكز الدول المعظمة القديمة في العراق والشام ومصر . فأضطر العرب لخوض الحروب ضد هذه المطامع ،

وأثبتوا جدارة فائقة في الوقوف بوجه أعتى الاعداء .

وتساقطت مراكز القوى السياسية والعسكرية القديمة الواحدة تلو الأخرى ، بينما بقي العرب وبلادهم في تطور وازدهار ، وفي الوقت الذي تعرض فيه العراق والشام ومصر الى سيطرة القوى الأجنبية ، بقيت جزيرة العرب ممتنعة على الأعداء ولم تطأها قدم أجنبية .

ولما نجحت بعض القوى الأجنبية من الالتفاف حول بلاد العرب وبلغ نفوذ الرومان البتراء وتدمر ، ووصل الأحباش والفرس تباعا الى بلاد اليمن ، كانت جزيرة العرب تمر بمخاض عسير نجم عنه ولادة الاسلام العظيم الذي منح العرب قوة دفع جديدة ، وربط بين ماضيهم الزاهر ومستقبلهم المشرق .

وستكون الالف الاولى ق.م. الحدود الزمنية للموضوع ، لأننا نشخص مع بدايات هذه الحقبة نهوضا ملحوظا في الجوانب الاقتصادية والسياسية والعسكرية لسكان الجزيرة العربية القدماء ، ولم يقتصر هذا النهوض الحضاري على بلاد اليمن ، وانما يتعزز بشواهد تاريخية وأثرية في مناطق نجد والحجاز والخليج العربي وعمان ويقترن هذا النشاط بأقوام من سكان الجزيرة العربية القدماء ، تسميهم المصادر القديمة بالعرب ، وتدعو بلادهم ببلاد العرب .

وفي الوقت الذي يشترك فيه العرب مع أشقائهم القدامى من آشوريين وبابليين وكنعانيين وأراميين ، وهم الذين هاجروا من الجزيرة العربية واستقروا في العراق والشام ، في خصائص اللغة والمعتقدات وبعض العادات والتقاليد ، فأنهم أيضا ورثوا مقومات حضارة الشرق القديمة ، وواصلوا فعلهم الحضاري والعطاء دون انقطاع حتى وقتنا الحاضر .

استقراء النصوص المسمارية عن التاريخ السياسي والعسكري العربي القديم :

ترجع أولى الاشارات عن العرب وبلادهم الى مطلع الألف الأولى ق٠م٠ ، وجاءتنا من النصوص المسمارية الآشورية ٠

ففي أحد نصوص الملك الآشوري شليمنصر الثالث والمؤرخ في عام ٨٥٣ ق٠م٠ يذكر فيه الملك حوادث حرب القرقار التي دارت بينه وبين حلف الممالك الأرامية بزعامة مملكة دمشق ، ويذكر الملك في تعداده للقوى التي اصطفت متحالفة بوجهه ، العرب الذين جاؤوا بأمرة زعيم لهم اسمه جندبو وكانوا يحاربون من على ظهور الجمال[١] ٠

ويبدو واضحا من معلومات هذا النص ، أن القبيلة أو التجمع القبلي الذي نجح بزج - ١٠٠٠ - مقاتل ضد الآشوريين بزعامة جندبو ، كانوا يقطنون البوادي الشمالية لجزيرة العرب ، وربما في مناطق وادي السرحان الذي نعرف من نصوص لاحقة تميزه بمدينة محصنة للعرب قاومت الآشوريين هي دومة الجندل ٠

وربما يكشف لنا تحالف العرب مع المدن السورية كحمص وحماة ودمشق ، عن المصالح التجارية المشتركة فيما بينهم ، حيث بقيت هذه المدن لفترات تاريخية طويلة منافذ رئيسية لتجارة العرب ٠

وتواصل النصوص الآشورية من عهود الملوك الذين اعقبوا شليمنصر الثالث في حكم الدولة الآشورية ، بذكر الاصطدامات والحروب التي دارت بينهم وبين العرب ، ويتم التعرض خلالها لأسماء المناطق والقبائل والمدن العربية ، ويرد ذكر الغنائم والجزية من المواد المختلفة ، ويصل الأمر الى ذكر بعض زعماء العرب وملوكهم وملكاتهم وبمعيتهم أسماء بعض الآلهة العربية القديمة ، حيث نستطيع في ضوء معلومات هذه النصوص أن نتابع بعض اوجه النشاط السياسي والاقتصادي والعسكري في تاريخ العرب القديم ٠

عمل الآشوريون لأحكام سيطرتهم على منافذ التجارة وطرقها

ومراكز الثروات المهمة في الأقسام الوسطى والشمالية من سوريا ، وتخلصوا نهايا من بقايا النفوذ الحثي الذي كان يتمركز في بعض الاقسام الشمالية الشرقية من سوريا ، وبخاصة في أطراف الفرات العلوية وفرعه الخبور ، وقد شغلت هذه الأحداث عهد الملكين تجلات بلاسر وأشور ناصر بل الثاني (١١١٤ - ١٠٧٦ق٠م٠) (٨٨٣ - ٨٥٩ق٠م) .

ولكن هذه النشاطات السياسية والعسكرية التي قصد الآشوريون من ورائها احكام السيطرة على سوريا وصولا الى سواحل البحر المتوسط ، وتولي دفة الشؤون الاقتصادية عامة ، والتجارية منها بوجه خاص ، لم تنجح في تحقيق الحالة المثلى التي كان الآشوريون يطمحون لتحقيقها . فقد بقيت بعض الممالك والمدن السورية الجنوبية بعيدة عن مجالات السياسة والاقتصاد الآشوري ، أضف الى ذلك تحرك هذه الممالك السريع للوقوف بوجه انشاط الآشوري . كما أدرك الآشوريون ان شرايين هامة للتجارة والثروات تتحرك في أقسام واسعة من شمالي الجزيرة العربية ، ووراء هذه النشاطات قوم يعرفون بالعرب ، وبلادهم بالأرض العربية ، وأنهم يمارسون نشاطاتهم بالاعتماد على الجمل .

لذلك بدأت سلسلة الاصطدامات والمعارك بين الآشوريين وبين العرب ابتداء من عهد شيلمنصر الثالث والى عهد آشور بانيبال آخر حكام الدولة الآشورية دون انقطاع ، وعلى الرغم من الاضرار التي لحقت بالعرب من جراء هذه الحروب والمعارك ، لكن النتيجة النهائية لها كانت لصالح العرب ، ففي الوقت الذي تعرضت فيه الدولة الآشورية الى الاضمحلال والسقوط ، بقي العرب ومراكزهم ونشاطاتهم قوية مستمرة ، وذلك ما تكشفه لنا نصوص ملوك الدولة البابلية الحديثة (الكلدية) وبخاصة نصوص آخر ملوكها نبونائيد . فيكشف لنا الملك تجلات بلاسر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ق٠م٠) عن حملاته العسكرية المتلاحقة ضد العرب ، ويتردد

من خلال نصوص هذه الحملات ذكر الملوك والملكات الذين دفعوا الجزية اليه ، ومنهم الملكة زابيبي (زبيبة) ملكة البلاد العربية ، وكان من بين المواد التي استلمها ، الجمال ذكورا واناث[٢] . كما تورد نصوص نفس الملك اسم الملكة سمسي (شمسة) ملكة العربية . كما نطالع لأول مرة اسم (سبأ) ولكن بسبب تلف النص لا نستطيع التعرف على القرين المرتبط بهذا الاسم .

ومن بين المدن العربية التي تشير اليها نصوص هذا الملك ، تيماء وسبأ وبدانا وختي ومسخ[٣] . ومن بين الزعماء العرب نتعرف على « أيدى يعلي العربي » وكانت له مدينة يتمركز فيها .

ونستطيع في ضوء قائمة الخسائر التي الحقها الآشوريون بالعرب تحت زعامة الملكة شمسي ، أن نقدر القوة العسكرية والكثافة السكانية والثروات الهائلة التي تميز بها العرب ، وهي تفسر لنا سبب الاهمية الكبيرة التي أولاها الآشوريون للعرب . فتشير القائمة الى نجاح الجيش الآشوري من قتل ـ ١١٠٠ ـ محارب و ـ ٣٠ ـ الف بعير و ـ ٢٠ ـ الف رأس ماشية ، اضافة الى غنم ـ ٥٠٠٠ ـ محافظة طيوب و ـ ١١ ـ اناء ذهبي وهي ثروة الملكة[٤] .

ويتكرر ورود ذكر سبأ أيضا ، ولكن بمعية زعيم يرد اسمه بصيغة الملك سرجون الثاني الاشوري (٧٢١ ـ ٧٠٥ق.م.) مما يؤكد عودته الى مسرح الاحداث السياسية والعسكرية ، ولم يفت بعضدها الكبوة التي الحقها تجلات بلاسر بها .

ويتكرر ورود ذكر سبأ أيضا ، ولكن بمعية زعيم يرد اسمه بصيغة « أتعمر السبأيي » وكان من بين الأتاوات التي استلمها سرجون من اتعمر السبأيي وسمسي ملكة البلاد العربية تراب الذهب والاحجار الكريمة

والخيول والجمال ، حيث نستطيع في ضوئها ان نقدر مواد التجارة العربية القديمة(٥) .

ويورد سرجون في نصوصه أسماء القبائل العربية التي صادفها في جولاته العسكرية وهي قبائل ثمود وايباديدى ومارسيمانو وخيافا ، وهي قبائل عربية قديمة تردد ذكرها في كتابات الكلاسيكيين وفي التوراة ، كما ان ذكر ثمود في القران الكريم معروف ومتواتر(٦) .

وينتقل العرب الى مرحلة متقدمة سياسيا وعسكريا أبان حكم العاهل الآشوري سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ق.م) حيث تكشف لنا نصوص هذا الملك عن تحالف العرب مع الثائر الكلداني في بابل مردوخ بلادان ، وانهم تغلغلوا في المدن العراقية مثل نفر وكيش وسبار ، كما يذكر سنحاريب أسماء قبائل اخرى منها ريحيحو ويداكو وعبودو وكبرى وملاخو وكورومو (قورومو) واوبولو ودامونو وخندارو وبقودو وحمرانو وهجرانو ونباطو .

وتكشف لنا الحيوانات التي غنمها الآشوريون من هذه القبائل وهي البغل والخيول والجمال والماشية ، أنهم كانوا من سكنة مناطق واحات وزراعة مزدهرة مما تساعد على تربية حيوانات مثل الخيول والحمير والبغال ، لان هذه الحيوانات لا تستأنس حياة الصحراء التي بقيت حكرا على الجمال فقط(٧) .

ويضيف سنحاريب الى قائمة أسماء الملكات العربيات اسم ياتعي ملكة العرب الذين تعرفنا على بعضهم من نصوص سابقة .

وتتوضح من حرب سنحاريب لحزائيل وملكة لا نعرف اسمها بسبب تلف النص ، أنهما بعد ان أحكم الآشوريون الطوق حولها ، تركا خيامهما ولاذا بدومة الجندل ، حيث يصفها نص من عهد أسرحدون خليفة

سنحاريب في حكم الدولة الآشورية (٦٨٠ - ٦٦٩ق٠م٠) بأنها قلعة العرب الحصينة(٩) .

وتكشف لنا نصوص أسرحدون عن أسماء بعض الآلهة العربية القديمة وهي : عتر سمين وداى أمضى ونوحى وروللدايوو أبيريلو وعتر قروما ، حيث نجد تشابها وتقاربا بين أسمائها وأسماء الالهة العربية المعروفة ، مع الاخذ بنظر الاعتبار الصيغ النغوية التي تغير أحيانا من نطق الاسم ، أو الصفات المتعددة للاله الواحد التي كانت تملي أسماء مختلفة(١٠) .

ونتعرف من نصوص سنحريب على ملكة عربية أخرى هي أسكلاتو كما يرد ذكر الملك حزائيل ملك العرب أيضا الذي وصل الى نينوى لمفاوضة الآشوريين على عقد سلام بينهما ويتفق هذا الموقف الآشوري السلم من العرب مع الموقف العام على عهد أسرحدون الذي صالح البابليين ونشر الأمن والسلام في ربوع البلاد ، لذلك وافق الملك الآشوري السلمي من العرب مع الموقف العام على عهد أسرحدون الذي ولابائه ان نقلوها مع غنائمهم الى نينوى .

وتستمر العلاقات الطيبة بين العرب والاشوريين توطدا على أيام أسرحدون ، ويوافق الآشوريون على انتقال السيادة على العرب بعد موت حزائيل الى ابنه ياتع ، كما يمكننا استنتاج ازدهار ملحوظ في نشاطات العرب التجارية من قائمة المواد التي كانت ترسل سنويا الى البلاط الآشوري على أيام أسرحدون ، وهي عشرة منات من الذهب وألف قطعة من احجار كريمة وخمسون جمل ومائة حافظة من الطيوب .

وتسبب اسناد الآشوريين لموقف القبائل العربية المنظوية تحت زعامة التعاون بين ياتع وأسرحدون - لاعلان الثورة ضد ياتع وكانت بقيادة شخص اسمه وهب ، ولكن التحالف بين ياتع والآشوريين نجح

في اجهاض حركة وهب والقاء القبض عليه وعلى اتباعه(١١) .

وربما وجد عرب الجزيرة توافقا بين مصالحهم التجارية وبين شيوع الامن والاستقرار في ربوع المنطقة تحت ظل الزعامة الآشورية . لذلك دعموا حملة اسرحدون على مصر وحملوا جمالهم بالمياه اللازمة لأدامة الحملة عند عبورها المفازات الصحراوية(١٢) .

وهنا نتأكد ثانيـة من كون الطـرق الصحراوية ومناطق الجزيرة العربية بقيت حكرا على اصحابها العرب ، وكان من المتعذر على اقوى الدول القديمه ، كالدولة الاشورية من اجتياز الارض العربية دون مساعدة العرب لهم وربما موافقتهم .

ويؤكد لنا ذلك من روايه ينقلها هيرودتس في معرض حديثه عن حمله قمبيز على مصر ، وكيف اضطر هذا الملك للاستعانه بزعماء العرب لمساعدته في عبـور برية سيناء وذلك من خلال نقلهـم المياه على ظهـور جمالهم(١٣) .

ويتطرق أسرحدون في أحد نصوصه الى حملة شنها ضد منطقـة نائيه من بلاد العرب يسميها بلاد بازو ، انها تتميز بوجود الجبال فيها ، حيث يدعوها النص بجبل حاسو ، ويتطرق النص الى ذكر اسماء الملوك الذين صدفهم اسرحدون في معاركه ومناطق نفوذهم وهم :-

قيس ملك خالد يسمي (ربما بلاد خالد يوم)
اكبرو ملك مدينة اليباتي
منساكو ملك مدينة ماجالاتي
حابيسو ملك مدينة قدا باع
نهارو ملك مدينة جعفاني
بعلو ملكة مدينة أهيلو

خاباتا مرو ملك مدينة بدع
يافع ملكة مدينة ظهراني
ليلى ملك مدينة يادع[١٤] .

ومثلما تسوء العلاقات بين آشور وبابل مع مطلع حكم آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٣٣ق.م.) تتوتر العلاقات بين الاشوريين والعرب ايضا ، وربما نجد مبررا لموقف العرب بسبب تضرر مصالحهم التجارية نتيجة تدهور الاوضاع الامنيه في بلاد بابل ، التي كانت محطه رئيسية لتجارة الخليج العربي ومنها عبر طرق القوافل الى مدن الشام وسواحل البحر المتوسط .

ولم يكن موقف العرب ضد الآشوريين عامة وانما ضد فريق منهم في الوقت الذي ناصروا فيه شمش شوم اوكن الآشوري حاكم بابل ضد اخيه آشور بانيبال .

ونستوضح من النصوص الآشورية التي تركها آشور بانيبال عن حروبه ضد بابل ، كيف لعب العرب دورا بارزا في دعم موقف بابل العسكري . ويلعب الملك يتع دورا بارزا في المعارك بين بابل وآشور من خلال تحالفه مع قوى عربية اخرى كانت بزعامة ابي يتع وايامو بن تعرى وقوفهم جميعا بجانب شمش شوم اوكن . وعندما فشلت ثورة بابل وقتل شمش شوم اوكن ، نجح يتع من الفرار ولجا الى بلاد الأنباط[١٥] .

وبذلك تتكشف لنا قوة الصلات بين القبائل العربية من أطراف العراق والى سواحل خليج العقبة حيث دولة الأنباط .

وتكشف لنا نصوص آشور بانيبال عن جانب مهم من تاريخ المرأة العربية ، فبعد أن تدور الدوائر بيتع ملك العرب ويقع أسيرا بيد الآشوريين ، تتزعم زوجته عادية ملكة العرب جموع القبائل وتعلن الثورة بوجه الآشوريين . ويرد في أخبار معارك عادية ذكر قبيلة قيدار ، عندما تحالف زعيمها أمولادى ملك قيدار مع الملكة عادية[١٦] .

وبسبب موقف الانبايوت المؤازر للعرب في حروبهم ضد الآشوريين، يشن آشور بانيبال حربا ضدهم وعلى قبائل متحالفة معهم نعرف منها بموجب النصوص قيلة يسامع (ربما مختصر يسمع ايل وهي اساس تسمية اسمعيل واسماعيليين) وهي قيلة الآلهة عتر سامين ، كما نعرف أيضا قيلة القيداريين .

ونتأكد من ورود ذكر الاسماعيليين صراحة في نص آخر من نصوص الملك آشور بانيبال حيث يقترن ذكرهم دائما في النصوص الآشورية بقيلة قيدار[١٧] .

واسماعيل (يشمئيل في التوراة ومعناه يسمع الآله) هو ابن ابراهيم من زوجته هاجر[١٨] وبموجب التوراة أيضا فأن ولد اسماعيل هو نبايوت وقيدار وأوبئل ومبسام ومشماع ودومة ومسا وحدار وتيما ويطور ونافيش وقدمة ، هذه أسماؤهم بديارهم حصونهم اثنا عشر رئيسا حسب قبائلهم . وسكنوا من حويلة الى شور التي امام مصر حينما تجيى نحو آشور[١٩] .

واسماعيل في رأي أهل الاخبار هو الجد الاكبر للعرب المستعربة[٢٠] ويرى الطبري أن العرب هم من نابت (نبايوت) وقيدر من أولاد اسماعيل دون أية اشارة الى بقية الاولاد[٢١] . والذي نعتقده بهذا الخصوص أن قيلة اسماعيل الوارد ذكرها في النصوص الآشورية تمثل اشارة صريحة الى الاسماعيليين ويعود تاريخها لأواخر القرن السابع قبل الميلاد . كما أن مجموعة من القبائل والمدن والحصون التي ورد ذكر أسمائها في التوراة باعتبارها من أولاد اسماعيل ، نعرفها في اشارات النصوص الآشورية أيضا ومنها (مسع) ودومة (دومة الجندل) وتيما (تيماء) وقيدار ونبايوت (الأنباط) .

ولكن لأسباب عديدة من ابرزها وقوع منازل القيلة على امتداد الطرق التجارية ، جعل من قيلتي نبايوت وقيدار تتالان شهرة كبيرة في

عهد آشور بانيبال .

فالأنباط كانوا يقطنون شرق أدوم في بلاد سعير (بلاط الانباط) والى شرقهم القيداريون[٢٢] ، وهي مناطق شديدة الاحتكاك ببلاد الشام وتحتل مواقع هامة على طريق الرحلات التجارية والعسكرية بين الشام وسواحل البحر الاحمر الشمالية وبين العراق لذلك تردد ذكرهم مرارا في النصوص الآشورية والتوراتية وبقي ذكرهم حيا في اذهان أهل الاخبار والرواة العرب[٢٣] .

وعلى العموم ، فأن مراجعة أهل الاخبار تربط بقوة بين الاسماعيليين والقيداريين وبين العرب ، لذلك نرى امكانية الافتراض بأن منشأ أنساب العرب الذي يرجع لاسماعيل يمكن تأرخته بموجب النصوص الآشورية لأواخر القرن السابع ق.م.

فالمادة الاساس هم العرب ، وبلادهم بلاد العرب بموجب النصوص الآشورية ، وخلال تطورهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، ظهرت لهم مراكز منفصلة عن بعض ، لها زعاماتها ومناطق نفوذها وعلاقاتها الخارجية بحكم المنطقة المجاورة لهم . فظهرت أسماء القبائل التي تنتسب الى اسم مكان أو آله أو حصن أو مدينة أو الجد الأعلى لهم ، وهذا ما حفظته لنا النصوص الآشورية في صيغة أسماء مواقع وحصون وآلهة وقبائل وأشخاص .

ولان الآشوريين لم يقصدوا في اشاراتهم للعرب وضع تاريخ هذه القبائل ، فلذلك لم يحققوا في منشأ ومدلول التسمية ، على عكس التوراة التي اهتمت كثيرا بالانساب ، فحفظت لنا أنساب العرب الاوائل وهي أسماء وجدنا صداها في النصوص الآشورية . لذلك ، تزداد قناعتنا في بحث موضوع العرب من خلال التعرف على تفاصيل قبائلهم . ومن الطبيعي ان تبرز دائما قبيلة بالمكانة العالية والنفوذ الواسع مثلما بلغت قريش

هـذا المستوى قبل الاسلام وهكذا أصبح لقيدار وبنايوت والاسماعيليين شأن بارز بين قائل العرب في عهد آشور بانيبال .

مثل سقوط الدولة الآشورية في عام ٦١٢ق.م. فرصة جيدة أمام العرب الذين تخلصوا من رقـابة الآشوريين على نشاطاتهم التجـارية ومشاركتهم لهم في ارباحها . وكان العـرب يحتفظون بعلاقات ودية مع حكام بابل الجدد من الكلدانيين اكتسبوها من علاقات التحالف العسكري بينهم وبين مردوخ بلادان البابلي أثناء ثورته على الآشوريين ، وكذلك من خلال التحالف العسكري مع البابليين على ايام شمش شوم أوكن . وينجح العرب في التمركز عند عقد الطرق التجارية ويغمرونها بنفوذهم الواسع .

وحدث في هـذه الاثناء أيضا ان نجح الأنباط في دفع الأدوميين المتمركزين في جبل سعير صوب الشمال ، وتحكموا بالمنطقة ، حيث نجد اشارات كافة المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) تربط بين البتراء والمنطقة المحيطة بها وبين الأنباط[٢٤] . وتبقى قبيلة قيـدار من القبائل الكبيرة والقوية في مناطق البادية الشمالية (بادية الشام) وأنهـم كانوا يجاورون حماة وربله من مدن سوريا ، وربما كانت قبيلة قيدار هي التي يرد ذكر محاربتها من قبل نبوخذنصر[٢٥] ، وهي الاشارة الوحيدة لحالة حرب بين العرب والبابليين ، وبالتالي يبيح لنا الاستنتاج بأن العرب كانوا أكثر تمكنـا وسيطرة على مناطق نفوذهم بعـد التخلص من الاشراف الآشوري عليها .

وعلينا أن ننتظر أواخر عهد الدولة البابلية في أيام الملك نبونائيد لنتعرف من خلال كتاباته على أوسع المعلومات اللازمة عن العرب وديارهم ومراكزهم وعلاقاتهم ، مثلما تكشف لنا هذه الكتابات عن علاقات فريدة من نوعها بين العرب وبين البابليين .

أشرنا قبل قليل الى انقطاع الحملات العسكرية على مدن العرب ومراكزهم التجارية خلال عهود الملوك البابليين الذي سبقوا حكم نبونائيد فيما عدا اشارة واحدة لحملة جانبية نفذتهـــا بعض القوات البابلية على المناطق جنوب دمشق وحماة ، والتي يرجح انها كانت ضد القيداريين كما تلمح الى ذلك التوراة • ومن المرجح جدا ان هذه الفترة من الاستقرار والأمن ، دفعت بالنشاطات التجارية العربية الى الازدهار الواسع والذي انعكس أثرها في قيام مراكز تجارية جديدة ونشاطات تجارية أوسع •

لذلك سيكون مبررا للحاكم في بابل الذي يواجـــه أزمة اقتصادية خنقة أن يتوجه بأنظاره صوب مراكز العرب التجارية •

ان خطوات الملك نبونائيد في سنوات حكمه الأخيرة ، ومنها حملات عسكرية الى أطراف الحجاز واتخاذ تيماء مقرا لحكمه واستقراره في تلك المناطق البعيدة عن بابل ، لا تزال جميعها بحاجـــة الى استقراء وتحليل دقيقـــين •

فهل الأسباب الاقتصادية هي الدافع لهذه الخطوة في سياسة نبونائيد أم ان هناك أسباب أخرى ربما من بينها خلافه الحاد مع كهنة مردوخ آله بابل الرئيسي ، بسبب ترجيحه لعبادة الآله القمر ـ نتار ـ الاله الرئيس بين الآلهة العربية •

وهل يحتمل أن تكون صلات القربى القوية التي تربطه بالعرب ، والتي يكشفها لنا موقع أمه المتميز بين كاهنات آله القمر في مدينة حرّان ، وهي المدينة التي ترتبط بالعرب من خلال رحلة ابراهيم اليها[٢٦] وأن اسماعيل جد العرب الأكبر ابن ابراهيم من زوجته هاجر المصرية كمـا أشرنا الى ذلك من قبل •

وعلى العموم ، فأننا مع اقرارنا بوطأة الأزمة الاقتصادية التي أحاطت

ببابل في أواخر عهد نبونائيد ، والتي كانت وراء خططه للاستقرار في تيماء ، لكننا لا نستطيع نكران دور العبادة المشتركة للآله اقمر بين العرب وبين نبونائيد وبين احتمالات انتسابه أساسا الى العرب بدلالة العلاقة الوثيقة بينه وبين امه من قبل وبين مدينة حران ، وأثر كل ذلك على خطوات نبونائيد اللاحقة .

ونميل الى الاعتقاد بأن رحلة نبونائيد الى جزيرة العرب واستقراره في تيماء لمدة عشر سنوات وتجواله بين مدن شمالي الجزيرة العربية ومنها كما يرد في نص حران الشهير الذي يدون أخبار هذه الرحلة : تيماء وددان (العلا) وفداكو (فدك) وخبرا (الخبر) وياديخو (يادع) ويثربو (يثرب)[٢٧] ، انما تخفي وراءها سراً غامضا يتعدى الأسباب الاقتصادية التي كانت وراء الحملات الآشورية السابقة .

فقد بنى نبونائيد في تيماء قصره الملكي وأحاطها بسور وجعلها مدينة جميلة وكأنه يريدها مضاهية لبابل . ويؤكد نبونائيد في جانب آخر من كتابته ، بأن العلاقات السلمية سادت بينه وبين الزعماء العرب .

ولم يفارق نبونائيد مقر حكمه الجديد في تيماء الا بعد أن أحكم الخطر ببابل ، فكان وصوله اليها متأخرا حيث لم تستطيع المدينة العظيمة التي انهكتها الاوضاع المتردية وغياب السلطة المركزية أن تقاوم زحف الفرس الأخمنيين ، فسقطت في عام ٥٣٩ق.م. ، وهي نفس السنة التي عاد فيها نبونائيد الى بابل .

الجوانب العسكرية :

عرضنا فيما سبق للمعلومات التي تزودنا بها النصوص المسمارية من العهدين الآشوري والبابلي الحديث والتي تغطي فترة زمنية تقدر بثلاثة قرون وذلك من عام ٨٥٣ق.م. وهو تاريخ أول ذكر للعرب في النصوص

الآشورية والى عام ٥٣٩ق٠م٠ وهو تاريخ سقوط بابل ونهاية أخبار النصوص المسمارية ٠

وعلى الرغم من تركيز النصوص على أخبار الحروب والمعارك التي دارت بين الآشوريين والبابليين وبين العرب والتي تؤكد تنامي القدرات العسكرية العالية للعرب بدليل استمرار الحملات العسكرية الآشورية دونما نتيجة حاسمة ، لكنها من جانب آخر لا تقدم لنا تفصيلات الوقائع العسكرية فهي تفتقر لذكر عدد المحاربين أو أسلحتهم أو خططهم أو ما شاكل ذلك مما له علاقة بالجوانب العسكرية ، وهو نقص ملحوظ في مضمون هذه النصوص لا نستطيع رسم صورته الواضحة ٠ ولكن بعض الاشارات الجانبية اضافة الى بعض مشاهد المعارك التي نحتها الآشوريون على جدران قصورهم تساعد في تصور بعض الجوانب العسكرية العربية القديمة ٠

فأولا وقبل كل شيء ، اعتمد العرب على الجمل دون سائر الحيوانات الأخرى في النقل والاسفار والحرب ، وكشف لنا نص شيلمنصر بوضوح مقاتلة العرب لأعدائهم من على ظهور الجمال ٠ ونستطيع أن نقرر في ضوء علاقة العرب بهذا الحيوان ، أن سر قوة العرب وامتناع أرضهم على الأعداء يكمن في ناحيتين ، الاولى في طبيعة بلادهم وأرضهم ، والثانية في امتلاكهم ناصية الجمل ، وهو الحيوان الذي أثبت قدرة فائقة في التكيف مع بيئة المناطق الصحراوية ٠ ويعد الجمل بمجموع خصائصه الطبيعية الحيوان الوحيد الذي يلائم حياة الصحراء ، ولا ينافسه في ذلك أي حيوان آخر ٠ ويرتبط ذكر الجمل في المصادر المسمارية والقديمة بالعرب دون غيرهم من شعوب الشرق القديمة ، مما يسمح لنا بالاعتقاد بأنهم كانوا وراء تدجينه واستئناسه واستخدامه الواسع في مجالات كثيرة ٠ وتتوضح العلاقة بين العرب وبين الجمل بشكل مؤثر في الأحداث العسكرية والتجارية منذ

مطلع الألف الاول ق.م.[٢٨] .

وقد يفاضل البعض بين سرعة جـري كل من الفرس والجمل ، ولكن سرعة جري الابل تفوق الخيل كثيرا عند قطع المسافات الطويلة ، واذا ما كانت المفاضلة بين قدرات الحيوانين في بيئة صحراوية حارة وجافة ، فلا تستطيع الخيل مجاراة أضعف الابل وأهزلها ، بل يتعذر عليها التوغل في بعض أقسام الأرض العربية الرملية بسبب تركيب قدمها الذي يغوص في الرمال ويمنعها من الحركة ، هذا بالاضافة الى حاجة الخيل لكثير من مياه الشرب والطعام الجيد ، وبخاصة الشـــعير ، وغير ذلك من أسباب الراحة وهي أمور يصعب توفيرها في بيئة الصحراء ومستلزماتها[٢٩] .

لقد طور العرب استخدام الابل في الحرب ، وجعلوا من ظهورها ما يشبه العربات العسكرية الآشورية . حيث يمتطي ظهر الناقة شخصان متعاكسان في مقعدهما على ظهر الحيوان ، فيكون جلول الأول في مواجهة رأس الجمل وأمام السنام وهو يقود الجمل ويوجهه بعصا طويلة ، وربما استخدمها في الدفاع عن نفسه وضرب أعدائه ، بينما يجلس الثاني ووجهه نحو ظهر البعير ، وهو يحمل القوس والنشاب في مقاتلة الأعداء ، ويجري كل هذا والبعير في حالة جـري سريعة مثلمـا هي حالة الخيل في الكـر والفـر[٣٠] .

ويمكننا أيضا في ضوء شكل منحوتة آشورية أخرى تصور امرأة عربية تقود أربعة جمال[٣١] ان نرجح اشتراك النسوة بصيغة معينة في الحرب ، ولربما في مساعدة الرجال المحاربين وتهيئة مستلزمات الحرب أو تضميد الجرحى ، بخاصة وأن بعض النسوة كن يحتلن مكانة متميزة بين العرب القدماء ، فقد مر معنا ذكر بعض الملكات والكاهنات ، كما نعرف عن وقوع بعضهن في الأسر .

وعلى الرغم من الطابع الصحراوي الحار والجاف الذي يغلب على

ديار العرب ، وهو ما تؤكده المصادر المسمارية عند وصفها لطبيعة الأرض التي اجتازتها الجيوش الآشـــورية في حملاتها على العرب ، وتفترض الارض الصحراوية حيـــاة بدوية لسكانها ، وهو ما تؤشره أيضا بعض اشارات النصوص المسمرية عندما تذكر الخيام والمخيمات والجمال التي ترتبط مباشرة بحياة البداوة ، ولكن ذلك كله لا ينفي جانبا من الحيـاة الحضرية وقيام المدن وتشييد القلاع المحصنة في مناطق مختلفة من بلاد العرب ، وبخاصة منها مراكز الواحات الكبرى ، حيث ان معظم مراكز العرب الهامة ترتبط بمناطق واحات مشهورة مثل تيماء ودومة الجندل وفدك وخيبر ويثرب وبلاد الانباط وغيرها • ولدينا صورة معبرة لواقع بعض المدن العربية القديمة فأحدى المنحوتات الآشوريا تصور لنا مشهد خيمتين ، برك بجوارهما بعيران ، بينما ينهمك رجل في داخل احـــدى بعض المدن العربية القديمة فأحدى المنحوتات الآشورية تصور لنا مشهد الخيمتين بتنظيف شاة مذبوحة ، ويعمل شخص آخر خارج الخيمة بأعداد وهي صورة معبرة بوضوح عن المدن الرئيسية وكيف كانت تحاط بخيام البدو الذين قد يكونوا في طريق سفرهم أو تجارتهم ، فيضربون خيامهم خارج أسوار المدن لبعض الوقت ثم يجمعونها وينصرفون •

وهكذا استأمن العرب على حياتهم وممتلكاتهم في بعض أوقات الخطر الشديد بالاستحكام وراء أسوار مدنهم المحصنة ، والاستفادة من أبراج الاسوار للدفاع وضرب الأعداء وهم بذلك يكشفون عن تطور وسائلهم الدفاعية في أوقات الحرب •

واذا ما عرفنا بموجب الأدلة الأثرية المتوفرة من بقايا بعض الابنية القديمة في أنحاء الجزيرة العربية ، بأن الحجارة كانت المادة الرئيسية في البناء ، عرفنا بالتالي الاستحكامات القوية والمناعة التي تميزت بهـا أسوار المدن العربية •

وتكشف لنا النصوص المسمارية عن توحد العرب في أوقات انشدائد والملمات ، فالعديد من النصوص الآشورية تؤكد على تحالف قبائل عربية مع بعضها البعض بوجه الخطر الخارجي • فعلى الرغم من الزعامات المتعددة التي تكشف عن قبائل غير موحدة في أطار سياسي أو تجمع قبلي كبير ، فأنهم ، وبدوافع مصالحهم المتداخلة ، وتحسسهم المشترك لمكامن الخطر ، ساعد بعضهم البعض في أوقات الحرب ، وتحول الأنباط الى معادين للآشوريين بسبب قبولهم نصرة وحماية ياتع الملك العربي •

ولم يقتصر ادراك العرب لاهمية التحالفات فيما بينهم فحسب ، بل أقاموا العلاقات الوطيدة وعقدوا الأحلاف العسكرية مع كل الاصدقاء الذين يصطفون الى جانبهم في العداء المشترك لقوة معينة •

فنعرف عن تحالف العرب مع المدن السورية وبخاصة دمشق ومع مردوخ بلادان البابلي حيث دعموا من خلاله موقف مدينة بابل •

اما عن الاسلحة ولباس الحرب وعدتها الاخرى ، فلا نملك اشارات كافية عنها في النصوص المسمارية للقرون الخمسة الأولى من الالف الأول ق•م• •

متابعة النشاطات العسكرية والعلاقات السياسية العربية القديمة في القرون الخمسة الاخيرة من الالف الاولى ق•م :

شهد عالم المشرق الأدنى القديم تحولات سياسية كبيرة في أواخر القرن السادس ق•م• ، فقد استقرت الاوضاع السياسية لصالح الدولة الفارسية الأخمينية مع مطلع القرن الخامس ق•م• ، حيث أذعنت لحكمها معظم مراكز الحضارات القديمة في العراق وسوريا ومصر ، وشعر الفرس لفترة وكأنهم يديرون امبراطورية مترامية الأطراف قوية البنيان ، ولكن ذلك الوضع لم يستمر طويلا حيث انشغل الفرس بثورات البابليين والمصريين المناهضة لحكمهم ، كما لعبت الحرب اليونانية الفارسية التي

بدأت مع أواخر حكم داريوس الاول ، في انهاك قوة الدولة الفرسية وتفكك أوصالها . أما جزيرة العرب فكانت الأرضين الوحيدة التي لم تخضع للأخمينيين ولم يرد ذكرها في قائمة المقاطعات الثلاث والأربعين التي كانت تدفع الجزية السنوية للحكام الأخمينيين .

وكانت الظروف السياسية لعالم الشرق الأدنى القديم خلال القرنين الخامس والرابع ق.م. مواتية تماما لازدهار العرب في حياتهم وتجارتهم وعمارتهم وفنونهم ، وأصبحت شهرة الأنباط ذائعة الصيت وهمينتهم على الطرق التجارية قوية ونافذة منذ القرن الرابع ق.م.(٣٣) . وتشعرنا بعض الموارد المختصرة جدا عن العرب في المصادر الكلاسيكية أن الوضع العام في الجزيرة العربية شهد استقرارا نسبيا في القرون التي أعقبت حكم البابليين والى نهاية القرن الرابع ق.م. ، أي منذ عام ٥٣٩ق.م. والى عهد السيطرة المقدونية على الشرق في عام ٣٣٢ق.م. بقيادة الاسكندر . ولم يحاول الأخمينيون الذين أصبحوا حكام المنطقة في الفترة المؤشرة أعلاه ، أن يتدخلوا بشؤون العرب : بل انهم حاولوا استمالة العرب الى جانبهم واقامة العلاقات الودية معهم .

وكانت استجابة العرب للموقف السلمي الذي أعلنه الأخمينيون ايجابية ، وزود الزعماء العرب جيش قمبيز بالمياه اللازمة ليضمنوا له سلامة الطريق عبر سيناء وتم ذلك من خلال تحالف بين الطرفين حيث يؤكد هيرودتس الذي ينقل لنا هذه الرواية حرص العرب الشديد على العهد الذي يلزمون أنفسهم به ، وانه يصل عندهم الى حد العبادة(٣٤) . كما نفهم من موضع آخر من كتابة هيرودتس عن نفس الموضوع ، أن ملك العرب استقبل سفارة فارسية طلبت منه سلامة المرور عبر سيناء(٣٥) .

بقي العرب وبلادهم أحرارا ، وفي الوقت الذي خضعت كل آسيا لداريوس ، لم يصبح العرب تابعين كعبيد للفرس مطلقا ، ولكن ربطتهم

مع الفرس علاقات صداقة منذ أيام قمبيز ، وانه لو لم يقدم العرب مساعدة للفرس لما استطاعوا من تحقيق حملتهم[٣٦] .

وحافظ العرب على علاقات حسن الجوار مع الحكام الأخمينيين ، وكانوا مع استقلالهم وعدم خضوعهم للفرس ، يبعثون بالهدايا بين الحين والآخر ليؤكدوا حسن نواياهم وصداقتهم ، وكانت الطيوب المادة الرئيسية بين هدايا العرب للفرس[٣٧] .

والأرجح ان العرب في سياستهم هذه أزاء الفرس ، قصدوا الابتعاد عن خطر الاصطدام بقوتهم الكبيرة آنذاك ، كما ضمنوا سلامة تجارتهم وحرية حركة تجارهم في المراكز الخاضعة لحكم الأخمينيين ، وبخاصة وأن معظم مراكز الاسواق التي يصرف العرب فيها بضاعتهم كانت خاضعة للحكم الأخميني ، ومنها بابل والشام ومصر وسواحل البحر المتوسط .

وعن طريق هيرودتس أيضا نعرف ان القسي كانت سلاحا رئيسا عند العرب[٣٨] وانهم كانوا يقاتلون من على ظهور الجمال التي لم تكن دون الخيل في سرعة جريها على حد تعبير هيرودتس[٣٩] ونستطيع في ضوء ما ورد في كتابات زينفون أن نقدر سبب عزوف الفرس واليونان والرومان من بعدهم عن ولوج الارض العربية ، لانها بموجب ما اعتادوه من حياة في بلادهم ، أرض قفراء عطشى قليلة الخيرات تعرض سالكيها الى المخاطر . وكان زينفون هذا ضمن عشرة آلاف اغريقي مرتزق جاء بهم كورش الاصغر الأخميني في محاولة منه لاستعادة عرش الدولة[٤٠] وقد ترك زينفون بعد عودته مع أبناء قومه من الاغريق الى بلادهم على أثر فشل الحملة ، وصفا دقيقا لمعالم المناطق التي مرّوا بها .

وعلى الرغم من ان المنطقة التي يصفها زينفون تجاور الأقسام العلوية للفرات ، وهي مناطق البوادي التي تخف عندها شدة الحرارة والجفاف قياسا الى أعماق الأرض العربية لكنها مع ذلك كانت كابوسا رهيبا بالنسبة

الى زينفون ورفاقه • يقول زينفون :ـ

« عبرنا البلاد العربية والفرات الى يميننا وسرنا لخمسة أيام عبر الصحراء لمسافة ١١٥ ميل ، حيث الارض منبسطه وتمتد لمسافات بعيدة وعريضه مثل البحر ، مليئه بالابسنت absinth (نبات صحراوي مسكر شديد التاثير) وحيث لا توجد أي انواع من الاشجار ، بل تكثر أنواع مختلفه من الحيوانات البريه ، فكانت الحمر الوحشيه باعداد كبيرة مع اعداد وفيرة من النعام ، كما يوجد الحبارى والبقر الوحشي » • ويستعرض زينفون في حديثه الصعوبات التي واجهتها الحمله • وليف نفقت بعض الحيوانات لعدم وجود الحشائش في هذا الطريق او ايه اشجار سوى الجفف المطبق • ومع ذلك فانه شاهد الناس يعيشون على قمع الحجرة من حافات النهر ويعملونها ثم ياخذونها الى بابل لبيعها وشراء الحبوب بدلها[٤٤] •

وبقيت ديار العرب الاصلية في جزيرتهم ملذا مشاء بينهم ولم ينافسهم عليها أو على ثرواتها وشطتها التجرية ايه قوة تذكر • ولكن عالم الشرق الادنى القديم شهد مع أواخر القرن الرابع ق•م• احدثا هامه كان في مقدمتها انهيار الدوله الاخمينيه امام زحف الجيش المقدوني بزعمه الاسكندر الكبير •

نجح الاسكندر في ظرف سنوات قليلة من اجراء تغييرات جذرية في بنية التنظيمات السياسية لبلاد اليونان ، ونجحت القطعات العسكرية التي يقودها الاسكندر بنفسه من انهاء السيطرة الفارسية الأخمينية على بلاد الاناضول وسوريا ومصر والعراق ، بل أكثر من ذلك فقد اجتاحت الجيوش اليونانية معاقل الفرس الأخمينيين في سوسة وبازركادة وبرسيبوليس وأصبحت المساحات المترامية من حدود اليونان غربا والى حوض نهر السند شرقا خاضعة لدولة مركزية قوية يقف على رأسها

الاسكندر الكبير .

وجال في خاطر اليونان أن يحققوا حلمهم المستحيل بقوة الأسكندر وذلك بالسيطرة على جزيرة العرب والوصول الى مكمن الثروات الطائلة التي تكتنزها هذه الارض .

وبعد أن وقفت أثينا المدينة التجارية ضد مشاريع الاسكندر العسكرية في أول الأمر توقعت تحقيق مطامعها التجاريه بسيطرتها على طرق ومنافذ التجارة العربية التي كانت الشغل الشاغل لساسة العالم آنذاك ، مثلما هو حال النفط العربي في عصرنا الراهن .

فهيأ أصحاب المصالح الاسباب النفسية اللازمة أمام القائد العسكري الاسكندر ، حيث يخبرنا أريان مؤرخ عهد الاسكندر ، ان دوافع الاسكندر لاحتلال جزيرة العرب تكمن وراء كونها البلاد الوحيدة التي لم تخضع لحكمه ، ولم يبعث أهلها برسلهم اليه لتقديم الطاعة والاحترام ، ولان أريان الذي ينقل هذه الأخبار عن لسان الاسكندر لا يخفي اعتقاده من ان الدافع الرئيسي لخطط الاسكندر العسكرية والاستكشافية لاحتلال جزيرة العرب تتركز في محاولته للسيطرة على هذه الأرض البكر واستثمار خيراتها . وبصرف النظر عن تفصيلات الخطط والرحلات الاستكشافيه التي نفذت بأمر الاسكندر لاستكشاف جزيرة العرب ، حيث اطنب المؤرخون والكتاب الكلاسيكيون ، وبخاصة أريان ، في الحديث عنها ، فأنها لم تحقق أدنى نجاح ممكن ، ولم تتجاوز الرحلات الاستكشافية التي انطلقت من بابل متوجهة صوب الخليج العربي في طريقها للالتفاف حول جزيرة العرب ، فأنها لم تتعدى في أحسن الأحوال راس مصندام ، وبقي العرب أحرارا فوق أرضهم يمارسون شتى النشاطات ويرفدون التجارة العالمية القديمة بأسباب النماء والازدهار .

ولكن دولة الاسكندر لم تعمر طويلا ، حيث بدأ التفسخ يسري في

أوصلها بعد موت الاسكندر المكبر في عام ٣٢٣ق٠م٠ ، ولم تستمر الخلافات التي نشبت بين قواده طويلا ، بل أدت الى انقسام امبراطورية الاسكندر ، فكان من بين الدول اليونانية الجديدة التي قامت على انقاضها دولة السلوقيين والتي اشرفت بنفوذه على ايران والعراق وسوريا ، بينما تمركزت دولة البطالمة في مصر ٠

ولم تسمح الظروف السياسية المتازمة بين البطالمة والسلوقيين وما نجم عنها من حروب ومطاحنات حدة ، بتفرغ القوتين الا للحفاظ على ممتلكاتهما والسعي لأجهاض لواحدة منهما الاخرى ٠ وكان من بين نقاط الخلاف والصراع بين البطالمة والسلوقيين مواد التجارة الشرقية القادمة من الهند عن طريق الخليج العربي ، والتي كانت تصل الى أيدي السلوقيين ٠ لذلك سعى البطالمة لكسر احتكار السلوقيين لتجارة الهند بمحاولاتهم للسيطرة على منافذ تجارة العرب التي كانت ترفد الاسواق بتجارة الهند بالاضافة الى منتجاتها الخاصة من الطيوب والبخور[٤١] ٠

وهكذا بدأت رحلة طويلة من محاولات جادة بذلها البطالمة لاستكشاف طرق الملاحة في البحر الاحمر وصولا الى جنوبي الجزيرة العربية وبلاد الهند ٠

كذلك بذل السلوقيون جهودا مماثلة في السيطرة على مراكز التجارة في الخليج العربي لاحكام سيطرتهم على المواد التجارية واحتكار توزيعها وبيعها ٠

ونالت مدن الأطراف العربية مثل البتراء ودمشق والجرهاء على ساحل الخليج العربي ، اهتماما ملحوظا تعكسه لنا التسجيلات الوافية عن هذه المراكز في المصادر الكلاسيكية وبخاصة كتابات بليني[٤٤] ٠ وهي تكشف بوضوح حرص السلوقيين على طرق التجارة العربية التي تمر بهذه المراكز ٠

ويبدو واضحا ان العرب استفادوا كثيرا من الخصومات الناشبة بين البطالمة والسلوقيين ، حيث أبعدت هاتين القوتين عن التدخل في شؤونهم ، فازدهرت تجارتهم وناوا منها ثراء كبيرا تعجب له الكتاب الكلاسيكيون .. ويرد ذلك صراحة في حديث سترابو الذي يقول فيه : « وقد عدا السبايون والجرهائيون بتجارة المواد العطرية هذه اكثر القبائل كلها ثراء . ولذلك كانت لديهم كميات كبيرة من مصنوعات الذهب والفضة ، كالأسرة والموائد الصغيرة والآنية والكؤوس اضف اليها فخامة منازلهم الرائعة ، فان الابواب والجدران والسقوف مختلفة الالوان بما يرصع فيها من العاج والذهب والفضة والاحجار الكريمة »[٤٥] .

لذلك تعرض الجرهائيون الى حملة عسكرية نفذها انطيوخس الثالث الملك السلوقي وسار اليهم عن طريق دجلة ثم مياه الخليج العربي ، وكان ذلك في عام ٢٠٥ق.م. ولكن الجرهائيين فاوضوه على تغيير خطته العسكرية واقنعوه بقبولها بتقديمهم له الكثير من الهدايا والاموال . ويرد في كتابات فوليبس على لسان الجرهائيين القول التالي الذي خاطبوا به الملك السلوقي : « لا تدمر ايها الملك السيئين الذين منحتهما اياها الآلهة ، الحرية والسلام المستديم » ويبدو انه قبل بالهدايا وعزف عن احتلال الجرهاء[٤٦] .

وبذلك اشترى العرب حريتهم وسلامهم ، ونجحوا في ابعاد منطقتهم عن لهيب المعارك والحروب التي تضر بشكل بالغ في النشاط التجاري .

وصادف البطالمة حكام مصر قوة عربية صامدة أيضا بوجه محاولاتهم تتمثل في الأنباط وعاصمتهم البتراء ، ونحصل على وصف رائع لبلاد الانباط وطرق عيشهم وسر قوتهم في أرضهم من كتابات ديودورس الصقلي (دون ما بين ٦٠ - ٧٥ ق.م.)[٤٧] . ففي معرض حديثه عن الارض بين سوريا ومصر يقرر أن الأقسام الشرقية منها كانت مشغولة من قبل

العرب الذين يدعون بالأنباط وهم يعيشون في بلاد قسم منها صحراء وآخر قليل الماء والثالث خصب ، ومن الصعب محاربتهم ، لأن ارضهم قليلة الماء ، ولأنهم وحدهم يعرفون مواضع سرية لآبار فيها يردونها عند الضرورة ، بينما يتعرض المهاجم هم الى العطش ونادرا ما يرجع دون كارثة تحل به .

وبهذا السبب كان العرب في هذه المنطقة يتمتعون بحريتهم ولم يخضعوا لحاكم اجنبي لذلك لم يتمكن الاشوريون سابقا ولا الميديون والفرس وحتى الملوك المقدونيون من اخضاعهم ، وعلى الرغم من تجييش هذه القوى لاعداد كبيرة من الجند ضد العرب ولكن دونما طائل . ثم يتحدث عن نمو اشجار البخيل في المنطقة بغزارة ، وكيف ينمو في بعض وديانهم البلسم الذي يبيعونه للاطباء حيث يصنعون منه الادوية . وكانت اولى المحاولات التي تعرضت لها بلاد الانباط ، هي الحرب التي شنها انتيجونوس أحد قادة الاسكندر اثناء الخصومات التي كانت تحتدم على وراثة دولة الاسكندر(٤٨) .

دفع أنتيجونوس بحملة اختار لها اثانويس قائدا من بين اصدقائه الاثنين ، وكانت الحملة تضم أربعة آلاف من المشاة وستمائة فارس وأمرهم بمهاجمة الانباط وسلبهم كل ممتلكاتهم . ويشير ديودورس الى جانب من نشاطات الانباط وبأنهم كانوا ينقلون بحرا البخور والمر من اعربية السعيدة .

وكان أثانويس القائد اليوناني يعرف الكثير عن بلاد الانباط وعن العرب واسلوبهم في القتال ، وكيف انهم يشجعون أعداءهم ، للاحقتهم حتى يتيهوا في فلوات الصحراء الحارة ، لذلك نجح في الاطباق على البتراء ليلا ، فقتل منهم عددا وأسر آخرين وأهمل المجروحين ، وحمل معه كميات هائلة من البخور والمر وحوالي ـ ٥٠٠ ـ تالنت من الفضة ،

ثم غادر المدينة على جناح السرعة ليتلافى تعقب العرب له .

وكان عرب البتراء في حينها في سوق مجاورة يبيعون ويشترون . وعندما اخبروا بهجوم اليونان على مدينتهم عادوا اليها مسرعين واستجلوا الأمر من الجرحى في المدينة فتعقبوا الاغريق مسرعين وأدركوهم ليلا وهم يعسكرون للراحة ، فهاجموهم ، وكان عددهم ثمانية آلاف مقاتل ، فنجحوا في ابادة القوة الغازية .

ولعلى الرغم من محاولات المصالحة بين العرب وأنتيجونوس ، ولكن العرب بقوا حذرين وجعلوا لهم مراصد في أعلى التلال المحيطة بالمدينة لمراقبة اية تحركات معادية .

ودفع أنتيجونوس بجيش آخر قوامه أربعة آلاف من المشاة وعدد معاثل من الفرسان ، ووضعهم تحت امرة ابنه ديمتريوس للانتقام من العرب . ولكن الراصدين أبلغوا سكان المدينة من خلال علامات نارية متفق عليها بتقرب الاعداء . فاخفى العرب ممتلكاتهم وتفرقوا من خلال طرق عديدة في متاهات الصحراء تاركين لديتريوس بعض الاموال فلما وصل الاغريق الى المدينة ولاحظوا نقصا في الاموال عما احرزه قائد الحملة السابقة والتي استرجعها العرب ، هاجموا المدينة وعاثوا فيها حتى المساء ثم انسحبوا ، ولما كانت صبيحة اليوم التالي ، أمر ديمتريوس قائد الحملة بالهجوم ثانية ، واذا بعربي يصيح « ايها الملك ديمتريوس ماذا تريد ، وما الذي يدفعك للهجوم علينا ومحاربتنا أننا نعيش في منطقة لا توفر لك ما تحتاجه من ضروريات ، نحن نرفض العبودية بأي شكل كانت . لذلك نلتمس اليك والى والدك الا تخطئوا بحقنا ونطالبك بعد أن تأخذ هداياتنا وأن تأمر جيشك بالانسحاب ودعنا نكون أصدقاء في المستقبل » ، وفي هذا الخصوص نذكر بالعبارات المقربة التي خاطب بها الجرهائيون الملك السلوقي وذلك ما أشرنا له من قبل .

ويبدو ان الكلام كان مقنعا لديمتريوس ، ليأمر جيشه الانسحاب وطلب من العرب ارسال سفير عنهم يعرض هذه الأمور .

فأرسل العرب اكبرهم سنا لهذا الغرض حيث عرض أمورا مماثلة لما قيل من قبل ، فقنع بها ديمتريوس واخذ الهدايا وقفل راجعا . وبذلك حافظت ابتراء على حريتها وسلامة أرضها .

أما آخر التسجيلات الكلاسيكية بخصوص الحرب بين الرومان وبين العرب ، فيسجلها لنا سترابو (٦٦ق.م - ٢٤م) وهو يدعى نقلها عن ايتودوروس الفيلسوف ومعلم اغسطس[٤٩] .

كانت حملة الرومان ضد العرب في عام ٢٤ق.م. ، وقد أمر بشنها يوليوس قيصر رغبة منه في استكشاف المنطقة ، وبسبب التقارير التي كانت تتحدث عن ثرائها الكبير . ويبدو ان الانباط وعدوه بالمساعدة علانية على الاقل . فقد كانت بلادهم تمثل بوابة بلاد العرب بوجه التحركات الرومانية منذ احتلال بومبي لسوريا في عام ٦٤ق.م. وبسبب مكانتها استراتيجية على طريق سوريا ومصر ، وبسبب أهميتها التجارية ، فقد توجهت نحوها المطامع الرومانية بشكل مباشر . وقد شهدت الفترة التي سبقت احتلال الرومان المباشر لمصر في عام ٣٠ق.م. بعض المصادمات بين الانباط وبين الرومان أو عملائهم في ولايات سوريا ، نخص بالذكر منها المعركة التي دارت بين هيرود اليهودي حاكم فلسطين وبين ملكو ملك الأنباط والتي انتهت بأنتصار ساحق للأنباط على هيرود في عام ٣١ق.م. .

ولكن سياسة الأنباط أزاء الرومان تغيرت ظاهريا بعد سيطرتهم على مصر واحكامهم الطوق على بلاد الانباط فأقاموا علاقات صداقة وطيدة مع الرومان على عهد ملكهم عبيده الثاني (٢٨ - ٩ق.م.) مما انعكس اثره واضحا على ازدهار تجارة الأنباط وسعة ثرائهم . وبرز على عهد هذا الملك

وزيره صالح الذي تميز بشخصيته القوية وتردد المصادر أنه دعم حملة الرومان على بلاد اليمن بقوات نبطية . ولكن يبدو ان صالحا كان يخطط سرا لافشال الحملة لذلك سار بهم في متاهات الطرق الصحراوية وتسبب في انهاك القطعات العسكرية الرومانية فهلك عدد كبير منها ، فاضطرت الحملة الى تاجيل مهمتها والعودة الى مصر (٥٠) .

وهكذا يكشف الانباط عن حس قومي نابع من الروابط التاريخية والمصالح والارض المشتركة بينهم وبين اهل اليمن ، كما يكشف سلوك صالح عن تحسسهم لخطورة الرومانية التي ان بدات باليمن فستنتهي بالانباط من دون شك .

وعلى الرغم من حديث المصدر الكلاسيكي الواسع عن معارك الانباط لكنها تقف عند حد ذكر المعركة وتحديد نتيجتها دون الاشارة الى تفصيلها ، مما يفقدنا فرصة الوقوف على نوعية الاسلحة والمعدات والخطط واساليب القتال وغير ذلك من شؤون الحرب .

ولكن مما يجدر التنويه به أن معارك الانباط كانت ضد الرومان أو حكامهم مباشرة . ويعني ذلك انهم كانوا مستعدين عسكريا بشكل يوازي الاستعدادات العسكرية الرومانية بدليل تسجيلهم للانتصارات المتلاحقة في الحروب .

ان الذي عرضناه على الصفحات القليلة السابقة يوضح بجلاء الدور العربي القديم في احداث منطقة الشرق الادنى خلال الالف الاولى ق.م ، ونعتقد في ان المعلومات التي توفرها المصادر القليلة عن الموضوع كفيلة لتغيير النظرة عن تاريخ العرب القديم وعن مساهمتهم في تسجيل أحداث التاريخ الانساني ، وأن القرون القليلة التي سبقت الاسلام ليست الا مرحلة متدهورة في التاريخ العربي الذي شهد حالات من التقدم والازدهار والفعل المؤثر في الأحداث لأكثر من ألف عام .

الهوامش :ـ

١ ـ رضا جواد الهاشمي : « العرب في ضوء المصادر المسمارية » مجلة كليـــة الآداب ـ بغـداد ـ العـدد / ٢٢ ـ ١٩٧٨ • الصـفحات ٦٣٩ ـ ٦٨٣ •

٢ ـ D. D. Luckenbill: Ancient Record of Assyria and Babylonia (reprinting 1968) Twovolums. New york (ARAB) Vol. I, p. 277,Textno. 772.

J. Pritchard: Ancient Near Eastern Texts. Relating to the old Testament. With Supplement. Newjersey p. 282-83 (ANET. اختصاره) 1969.

٣ ـ انظر بخصوص هذه المدن ومواقعها المرجحة (رضا جواد الهاشمي) « العرب في ضوء المصادر ••• » المصدر السابق •

٤ ـ ARAB, Vol. I, p. 283, T. no. 817.

٥ ـ ANET. p. 285.

٦ ـ رضا جواد الهاشمي : « العرب في ضوء المصادر ••• » المصـدر السابق ص ٦٧٥ هامش ١٨ •

٧ ـ رضا جواد الهاشمي : « الابل في ضوء المخلفات الاثرية والكتابات القديمة » مجلة كلية الاداب ـ بغداد العدد ـ ٢٣ / ملحق ـ ١٩٧٨ الصفحات ١٨٥ ـ ٢٣٢ •

٨ ـ ARAB, p. 130, T. no. 259.

٩ ـ رضا الهاشمي « العرب في ضوء ••• » المصدر السابق ص ٦٧٧ هامش ٢٧ •

١٠ـ ديتلف نيلسن وآخرون : التاريخ العربي القديم • القاهرة ـ ١٩٥٨ الفصل الخامس : الديانة العربية القديمة • الصفحات ١٧٢ ـ ٢٢٧ رنيه ديسو : العرب في سوريا • الدار القومية للطباعة والنشـر ص١٢٤ فما بعد •

١١- ANET, p. 292.

١٢- ANET. p. 292.

١٣- Herodotus, III, 7-9 iu The Greek Historians: Thuoydides, xenophon, Arrian. Edited by: Franois R. B. Godolphin - Vols. 7-2 Secondprinting Newyork. 1942.

١٤- ARAB. p. 209, T. no. 520.
p. 214, T. no. 538.

ANET. p. 297-98.

١٦- رضا الهاشمي : « العرب في ضوء ... » المصدر السابق ص٦٥٦ .

١٧- ANET. p. 300.

١٨- تك ١٦/١٥ - ١٦
تك ١٨/١٨ - ٢٧

١٩- تك ٢٥/١٢ - ٨ .

٢٠- د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام . مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٨ ج١ ص٤٣٣ .

٢١- نفس المصدر ص٤٣٥ .

٢٢- G. L. Robinson: The Sarcophagus of an Ancient Civilizations. New york - 1930 pp. 175-76.

٢٣- جواد علي : المصدر السابق ص٤٣٧ فما بعد .

٢٤- Robinson. op. cit. pp. 376-78.

٢٥- أرميا : ٤٩/٢٨ - ٣٣ .

D. J. Wiseman: Chronicles of Chaldaean Kings (626-556, B.C.) London 1956 p. 31 ff.

٢٦ـ تك ١١/٣١ ٠

وهناك بعض المحاولات لتفسير اسم ابي ابراهيم « تراح » بمعنى يقترب من القمر ٠ انظر (رنيه ديسو : المصدر السابق ص١٦ـ١٧ ٠

٢٧ـ C. G. Gadd: "The Harran Inscriptions of Nabonidus" Anatolian Studies. Vol. VIII (1958). p. 35 ff.

انظر ايضا : رضا الهاشمي « العرب في ضوء المصادر ٠٠٠ » ص ٦٦٣ـ٦٦٤ ٠

٢٨ـ رضا جواد الهاشمي : « تاريخ الابل ٠٠٠ » المصدر السابق ٠

٢٩ـ نفس المصدر ٠

٣٠ـ J. Britchard: The Ancient Near East in Pictures. New Jersey 1954. pl. no. 63.

٣١ـ ibid. pl. no. 187

٣٢ـ ibid. pl. no. 170

٣٣ـ رنيه ديسو : المصدر السابق ص١٥ ٠

٣٤ـ Herodotus. III, 7-9.

٣٥ـ ibid. III, 4

٣٦ـ ibid. III, 88

٣٧ـ ibid. III, 97

٣٨ـ ibid. III, 69

٣٩ـ ibid. III, 89

٤٠ـ طه باقر وفوزي رشيد ورضا الهاشمي : تاريخ ايران القديم ٠ مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٠ ٠ ص٧٢ ٠

٤١ـ Xenophon, (401 B.C.) I, 5-1

٤٢- Arrian, VII, 19-1; 20-8

٤٣- لطفي عبدالوهاب يحيى : دراسات في تاريخ مصر - القسم الاول عصر البطالمة ، الاسكندرية - ١٩٦٧ ، ص ١٥٠ فما بعد .

٤٤- Strabo: XVI, 4-19

٤٥- Pliny: V, 74-90

٤٦- G. F. Hourani: Arab Sea Faring in the Indian ocean. Beirut. p. 14

٤٧- Diodorus Siculus: Bibliotheca Historica Book II, 48.

٤٨- ibid. XIX, 94-97.